جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية
بإيتاى البارود

الأمر عن طريق الاستفهام

مواقعه وأسراره فى القرآن الكريم

أ. د/ الشحات محمد أبو ستيت
أستاذ البلاغة والنقد
ووكيل كلية اللغة العربية بإيتاى البارود

١٤١٩هـ/١٩٩٨م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم:

الاستفهام من الأساليب الإنشائية ذات الأغراض المتعددة والدلالات المتنوعة، وهو كثير الدوران فى نظم القرآن الكريم بدلالاته المختلفة التى بلغت عند «السيوطى» اثنتين وثلاثين دلالة[١].

والأمر غرض من أغراض الاستفهام، ودلالة من دلالاته فى القرآن الكريم، إذ ورد أسلوب الاستفهام فى بعض الآيات مفيداً الأمر، وحاثاً على طلب الفعل، وباعثاً على تحصيله، وهذا الأمر الوارد فى صورة الاستفهام يختلف عن الأمر الصريح، والطلب المباشر بما يحمله من معان بلاغية، ومايوحى به من أسرار تعبيرية. وحول هذا الأسلوب وأسراره البلاغية فى النظم القرآنى يدور هذا البحث .

وقد جاءت أساليب الاستفهام الدالة على الأمر فى القرآن الكريم فى مقامات تقتضى هذا اللون من الأساليب، بما يتضمنه من لطائف وإيحاءات، كما سنرى فيما يلى :

١ - الدعوة إلى التوحيد والإنقياد لله تعالى:

يقول الله تعالى: (قل إنما يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون)[٢]. فالاستفهام الذى ختمت به الآية الكريمة دال على الأمر، ومفيد لطلب الانقياد لله رب العالمين، ومعناه: فأسلموا، قال أبو حيان: هذا استفهام يتضمن الأمر بإخلاص التوحيد والانقياد إلى الله تعالى»[٣].

---

(١) انظر الإتقان: ٢/٧٩ .\

(٢) سورة الأنبياء: آية: ١٠٨ .

(٣) البحر المحيط: ٦/٣٤٤ .

وهذا الأمر الوارد عن طريق الاستفهام قد تقدمه فى الآية بيان قوى مؤكد بأن الوحى المنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم يتمثل فى إثبات الوحدانية لله عز وجل، وقد ورد هذا البيان فى صورة مكونة من قصرين مركبين: الأول: قصر فيه الوحى على وحدانية الله عز وجل، قصر صفة على موصوف، والثانى: قصر فيه الله تعالى على الوحدانية قصر موصوف على صفة .

وهذا البيان المؤكد بالقصرين أثبت قضية الوحدانية وأكدها، وجعلها واضحة لكل متدبر، وأعقبه الاستفهام آمراً بالانقياد للإله الذى ثبتت وحدنيته، حيث لم يبق للمخاطبين عذر فى عدم الانقياد لله الواحد جل شأنه، بعد أن اتضحت وحدانيته وتأكدت، وليس أمامهم إلا الاستجابة، والانقياد لله الواحد القهار .

ومثال ذلك: أن تقول لصاحبك تحثه على صحبتك فى السفر إلى القاهرة: سأذهب إلى مدينة «المعز» لأمتع النفس برؤية آثارها الإسلامية العظيمة، فهل أنت ذاهب معى؟. وكأنك تقول له: قد اتضح لك أمر سفرى، وظهرت لك فائدته، فلا عذر لك فى عدم صحبتى، وماعليك إلا الذهاب معى.

وأمر المخاطبين بالانقياد لله تعالى عن طريق الاستفهام فى الآية الكريمة، أحرى بالقبول، وأدعى إلى الاستجابة، لما فيه من تلطف فى الأمر، وسلوك جانب السياسة واللين فى الحث علي الفعل، مما يجعله ينفذ إلى القلوب، ويحولها إلى مادعيت إليه .

كما أن فيه مبالغة وقوة في الحث على الانقياد لله تعالى، من حيث إن الاستفهام يدل على أن المستفهم عنه مستحق الوقوع بدون أمر، فسئل عنه، هل وقع ذلك الأمر اللازم الوقوع أو لا؟[٤].

---

(٤) ينظر حاشية الشهاب على تفسير البيضاوى: ٦/٢٦٧ .

وهذا الأمر فى ذات الوقت يحمل فى طياته توبيخاً شديداً للمأمورين، لما فيه من إشارة إلى تقصيرهم في الانقياد لله عز وجل، وتباطئهم فى الإخلاص له، والإقبال على الإيمان به، بعد أن ظهرت لهم الأدلة، ووضحت لديهم البراهين.

ويدرك المتأمل هذه اللطائف البلاغية فى قوله تعالى: (فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد) (٥).

فقوله تعالى: (أأسلمتم) استفهام يفيد الأمر، ومعناه: أسلموا (٦).

والآية تبين انقياد الرسول صلى الله عليه وسلم ومن اتبعه لله رب العالمين، وتوضح إسلام وجوههم وإخلاصهم لله عز وجل، وقد سبقتها آية تبين أن الإسلام هو الدين الصحيح والملة المقبولة عند الله تعالى، وماعداه من الملل والنحل كفر وخيم العاقبة (إن الدين عند الله الإسلام وماختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ماجاءهم العلم بغياً بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب) (٧)، ومن ثم فلم يبق للمخاطبين عذر بعد إيضاح هذه الحقائق، وإرشادهم إلى الدين الصحيح، وماعليهم إلا المسارعة بإعلان الإسلام، والانقياد لله جل شأنه .

وقد جاء الأمر فى الآية عن طريق الاستفهام حثاً لهم على قبول الإسلام. بتلطف وترفق، وتوبيخاً لهم على مسلكهم الشائن فى عدم المسارعة إلى قبول الحق بعد ماتبينت دلائله .

---

(٥) سورة آل عمران. آية: ٢٠ .

(٦) البرهان: ٣٣٩/٢ - الزركشى .

(٧) سورة آل عمران.آية: ١٩ .

قال شيخ الإسلام «أبو السعود» مبيناً مافى هذا الاستفهام من الأسرار: (أأسلمتم) متبعين لى كما فعل المؤمنون، فإنه قد أتاكم من البينات مايوجبه ويقتضيه لامحالة، فهل أسلمتم وعملتم بقضيتها؟ أو أنتم على كفركم بعد؟، كما يقول من لخص لصاحبه المسألة ولم يدع من طرق التوضيح والبيان مسلكاً إلا سلكه، فهل فهمتها؟ ... وفى هذا التعبير من استقصارهم، وتعييرهم بالمعاندة وقلة الإنصاف، وتوبيخهم بالبلادة وكلة القريحة مالايخفى»[٨].

٢ - الحث على الشكر:

يقول الله تعالى: (وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير، وكنا فاعلين وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون)[٩] قال البيضاوى: وقوله تعالى: (فهل أنتم شاكرون) أمرأخرج فى صورة الاستفهام للمبالغة والتقريع»[١٠]، وقال أبوحيان: إنه استفهام يتضمن الأمر، أى: اشكروا الله على ماأنعم به عليكم»[١١].

وهذا الأمر الوارد فى صورة الاستفهام جاء بعد بيان بعض النعم التى أنعم الله بها على المخاطبين، وهذه النعم الظاهرة والآلاء الواضحة تقتضى منهم شكر المنعم جل علاه، ومن ثم أمروا بالشكر عقيب ذكرها ليسارعوا بالاستجابة حيث لم يبق لهم عذر فى عدمها .

---

(٨) تفسير أبى السعود: ١٩/٢ .

(٩) سورة الأنبياء: ٧٩، ٨٠ .

(١٠) تفسير البيضاوى بهامش حاشية الشهاب: ٢٦٧/٧.

(١١) البحر المحيط: ٣٣٢/٦ .

وهذا التعبير فيه تلطف فى الأمر، ولين في الطلب، ودعوة إلى إعمال العقل والفكر ليختار الطريق الملائم، ألا وهو شكر المنعم على جزيل نعمائه وجليل آلائه .

وفيه توبيخ وتقريع للمخاطبين على تقصيرهم فى شكر واهب النعم، كما أن فيه دلالة على أن هذا الشكر مستحق للوقوع من غير أمر به، أو حث عليه. قال الشهاب الخفاجى فى تعليقه على كلام البيضاوى السابق: وكون الاستفهام للتوبيخ والتقريع ظاهر، لما فيه من الإيماء إلى التقصير فى الشكر، وأما المبالغة: فلدلالة الاستفهام بأن الشكر مستحق للوقوع بدون أمر، فسئل عنه: هل وقع ذلك الأمر اللازم؟ أو لا؟ (١٢).

٣- الحث على الانتهاء عن الخمر والميسر:

يقول الله تعالى: (يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسروالأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون) (١٣).

وقوله تعالى: (فهل أنتم منتهون) أمر وارد على صورة الاستفهام، للحث على المسارعة بالانتهاء عن شرب الخمر ولعب الميسر بعدما تبين مافيهما من شرور وآثام .

وقد تقدم هذا الأمر بيان تفصيلى لوجوه الفساد فى هذه المحرمات، وللدواعى التى توجب صرفهم عنها وهى: (١٤)

---

(١٢) حاشية الشهاب: ٦/٢٦٧ .

(١٣) سورة المائدة: ٩٠، ٩١ .

(١٤) تنظر فى الكشاف: ١/٦٤٢، والتفسير الكبير: ٣/٤٤٥، وتفسير المنار: ٧/٥٣.

١ - الحكم عليها بأنها رجس، وهو كلمة تدل على غاية القبح والخبث.

٢ - مجئ هذا الحكم فى أسلوب القصر بإنما، قصر موصوف على صفة، لإبراز صفة الرجس وتقويتها، والدلالة على أنها هى الصفة الوحيدة لها، فهى رجس لاغيره ولاتقع فيها البتة، وذلك ظاهر لايشك فيه .

٣ - قرن الخمر والميسر بالأنصاب والأزلام، وهما من أعمال الشرك وأفعال المشركين .

٤ - وصف الرجس بأنه من عمل الشيطان، للدلالة على تمام قبحه، وكمال خبثه .

٥ - الأمر بتركها بجملة (فاجتنبوه) وهى أبلغ من فاتركوه، لأن الاجتناب يفيد الأمر بالترك مع البعد عن المتروك، بأن يكون التارك فى جانب بعيد عن جانب المتروك .

٦ - جعل اجتنابها مرجاة للفلاح، ومدعاة للفوز، وبالتالى فإن فعلها مدعاة للخيبة والخسران .

٧ - أنها مثار للعداوة والبغضاء، وكفي بهما شراً مستطيراً .

٨ - أنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وكفى بذلك إثماً مبيناً .

وبعد ذكر هذه الوجوه من المفاسد جاء الأمر بالانتهاء عنها فى صورة الاستفهام بهل المقرونة بالفاء، ليتصل السبب والمسبب، ويقترن الانتهاء عنها بتفصيل شرورها ومفاسدها .

وقد تحقق هذا الانتهاء الفورى من جماعة المؤمنين لما نزلت الآية الكريمة، وعبروا عن ذلك فقالوا: انتهينا ربنا، وقال عمررضى الله عنه: انتهينا انتهينا [١٥].

---

(١٥) ينظر تفسير ابن كثير: ٢/٩٢ .

وهذا الأمر المدلول عليه بالاستفهام يفيد من المعانى البلاغية ماسبقت الإشارة إليها فى كلامنا عن نظرائه، ويشير إلى أن الزجر والتحذير وكشف مافى الخمر والميسر من المفاسد والشرور قد بلغ الغاية، وأن الأعذار قد انقطعت بالكلية، حتى إن العاقل إذا خلى ونفسه بعد ذلك لاينبغى أن يتوقف فى الانتهاء أو يتمهل فيه. (١٦)

قال الزمخشرى: وهذا من أبلغ ماينهى به، كأنه قيل: قد تلى عليكم مافيهما من أنواع الصوارف والموانع، فهل أنتم مع هذه الصوارف منتهون؟ أو أنتم على ماكنتم عليه؟ كأن لم توعظوا ولم تزجروا» (١٧).

وبناء على هذا نقول: إن الأمر عن طريق الاستفهام فى هذه الآية، ومايماثله فى الآيات الأخرى يوحى بمعنى دقيق يضاف إلى ماسبق من معان ولطائف، ألا وهو إعطاء الحرية للإنسان فى اختيار الطريق، وبعث عقله علي التفكير فى المسلك الذى ينبغى أن يسير فيه، حيث سيق له الأمر على سبيل العرض الرفيق الذى لاتعسف فيه، وكأن الأمر متروك له في اختيار مايراه نافعاً له بمحض عقله وتفكيره، بعد ماكشفت أمامه السبل، وجليت له الحقائق، وأحيط علماً بما ينفعه ومايضره، والعاقل لن يختار إلا الاستجابة لأمر الله العزيز الحكيم .

٤ - الحث على الاجتماع للتأييد:

يقول الله تعالى: (فجمع السحرة لميقات يوم معلوم وقيل للناس هل أنتم مجتمعون لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين) (١٨).

---

(١٦) ينظر تفسير أبى السعود: ٣/٨٦، وحاشية الشهاب: ٣/ ٢٨٠ .

(١٧) الكشاف: ١/٦٤٢ .

(١٨) سورة الشعراء: ٣٨-٤٠ .

وقوله تعالى: (هل أنتم مجتمعون) استفهام يفيد أمر الناس بالمسارعة إلى الاجتماع، تأييداً لفرعون وسحرته، ومعناه: اجتمعوا.

قال الزمخشرى: هذا استبطاء لهم في الاجتماع، والمراد منه استعجالهم، واستحثاثهم، كما يقول الرجل لغلامه هل أنت منطلق؟ إذا أراد أن يحرك منه، ويحثه على الانطلاق، كأنما يخيل له أن الناس قد انطلقوا وهو واقف. ومنه قول تأبط شراً:

هل أنت باعث دينار لحاجتنا أو عبد رب أخا أعون بن مخراق

يريد: ابعثه إلينا سريعاً ولاتبطئ به(١٩).

وهذا الأمر المصور بصورة الاستفهام، وارد ضمن حكاية القرآن الكريم مادار بين فرعون وملئه، لما جاءهم موسى عليه السلام بمعجزتيه: عصاه التى يلقيها فإذا هى تلقف مايأفكون، ويده التى ينزعها فإذا هى بيضاء للناظرين. فاتهموه بأنه ساحر عليم، يريد أن يخرجهم من أرضهم بسحره، وتجهزوا لإبطال ماجاء به، فدعوا كبار السحرة للمباراة معه فى ضحى يوم الزينة ليفضحوا أمر سحره، ويهدموا دعوته، ومباراة هامة مثيرة كهذه لابد أن يدعى لحضورها جمهور غفير من مؤيدى فرعون، يحمس فريقه، ويشجع سحرته فى هذا اللقاء الحاسم، الذى سيعلى شأن فرعون، ويجعل الناس يدينون له بالولاء، ويبطل كل دعوة لموسى عليه السلام. ومجئ هذا الأمر في ثوب الاستفهام، فيه استعجال للجماهير فى الحضور، واستنهاض لهممهم فى المجئ، وحث لهم على السعى لمشاهدة هذه المباراة التاريخية عند حلول موعدها المضروب لها .

---

(١٩) الكشاف: ١١٢/٣ .

وفيه إشارة إلى أن اجتماعهم متحقق من غير أمر به، وحاصل دون طلب، وماالاستفهام إلا عن وقوعه علي سبيل الاستعجال .

وفيه إشعار بعدم التعسف فى طلبهم للحضور، حيث تركوا وشأنهم، يختارون ماتقرره عقولهم، ولاشك فى أنها ستقرر الذهاب إلى موطن المباراة للتأييد والتحميس، بعد الاستماع إلى ماأشاعه الملأ عن مراد موسى وأخيه، ومجيئهما لإخراج الناس من أرضهم وديارهم .

٥ - الحث على رؤية أهل النار:

قال تعالى: (قال هل أنتم مطلعون) [٢٠] والآية ضمن آيات تحكى بعض أحاديث أهل الجنة التى يتسامرون بها فى مجالسهم، إذ يقول قائل منهم: كان لى مصاحب ملازم فى الدنيا ينكر على تصديقى بالبعث والجزاء ويستبعد الحساب والجزاء بعد الموت، فاطلعوا في النار لنرى حال هذا القرين، حسبما ينطق به قوله تعالى: (قال قائل منهم إنى كان لى قرين يقول أإنك لمن المصدقين أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمدينون قال هل أنتم مطلعون فاطلع فرآه فى سواء الجحيم» [٢١].

قال القرطبى: وقوله (هل أنتم مطلعون) ليس باستفهام، إنما هو بمعنى الأمر، أى: اطلعوا، قاله ابن الأعرابى وغيره. [٢٢]

وقيل: إن الاستفهام مستعمل فى العرض - وهو الطلب بلين ورفق - أى: هل تحبون أن تطلعوا على أهل النار لأريكم ذلك القرين، فتعلموا أين

---

(٢٠) الصافات: ٥٤ .

(٢١) الصافات: ٥١ - ٥٥

(٢٢) القرطبى: ٧/٥٥٢٦ .

منزلتكم من منزلتهم. عرض علي رفقائه أن يتطلعوا إلى رؤية قرينة وماصار إليه. (٢٣)

وسواء أكان الاستفهام بمعنى الأمر أم كان بمعنى العرض ففيه طلب برفق وتلطف، إذ الأمر الاستفهامي مبناه على اللين والتلطف في طلب الفعل، لأنه مفهوم من أسلوب الاستفهام، والأصل في المستفهم عنه أ يكون أو لايكون، ويفهم من هذه أن المأمورين مخيرون بين إيجاد الفعل وتركه، ولكن لما كان إيجاد الفعل له دواعيه ومقتضياته، كان إيجاده هو المطلوب .

ولما قال لهم (هل أنتم مطلعون) دعاهم إلى الاطلاع وحثهم عليه، مع أن الظاهر من الأسلوب أنهم مخيرون بين الاطلاع وعدمه، ولكن أمر الإطلاع يهم المخاطبين فهم يرغبون في رؤية المعذبين الذين كانوا يستهزئون بهم وبعقائدهم في الدنيا، ليدركوا نعمة الله العظيمة عليهم، بسبب إيمانهم وطاعتهم ومن ثم كانت استجابتهم الفورية لما دعوا إليه من الاطلاع كما جاء في قوله تعالى (فاطلع فراه في سواء الجحيم).

وفي قوله تعالى (فاطلع) اكتفاء، أي فاطلع واطلعوا، فرآه ورأوه في سواء الجحيم.، وإذ هو إنما عرض عليهم الاطلاع ليعلموا تحقيق ماحدثهم عن قرينه، واقتصر علي ذكر اطلاعه هو دون ذكر اطلاع رفقائه لأنه ابتدأ بالاطلاع ليميز قرينه فيريه لرفقائه (٢٤).

٦ - الحث على الصبر:

يقول الله تعالى: (ومأأرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيراً) (٢٥). والاستفهام في قوله عز وجل: (أتصبرون) يفيد الأمر، ومعناه:

---

(٢٣) حاشية الشهاب علي البيضاوى: ٢٧١/٧، والتحريروالتنوير: ١١٧/٢٣ .

(٢٤) التحرير والتنوير: ١١٧/٢٣ .

(٢٥) سورة الفرقان. آية: ٢٠ .

اصبروا. [٢٦]، قال أبو حيان: قيل إنه استفهام بمعنى الأمر، أى: اصبروا. [٢٧]، وقال الشهاب الخفاجى: المراد منه الإيجاب، والأمر بالصبر، أى: اصبروا، فإنى ابتليت بعضكم ببعض، الغنى بالفقير، والشريف بالوضيع [٢٨].

وهذا الأمر المرتدى رداء الاستفهام، وارد في أعقاب ذكر افتراءات الكافرين على الرسول صلى الله عليه وسلم، وحكاية استهزائهم به، وكذبهم عليه، واعتراضهم على بشريته وأكله الطعام ومشيه فى الأسواق.

فبين الله له - علي سبيل التسلية والتصبير - أنه ليس بدعا من الرسل، فكلهم كانوا بشراً، وكلهم كانوا يأتون الأعمال البشرية التى لاتتنافى مع الرسالة. «فإذا كان هناك اعتراض، فليس هو اعتراضاً على شخصه، إنما هو اعتراض على سنة من سنن الله، سنة مقدرة مقصودة، لها غايتها المرسومة: «وجعلنا بعضكم لبعض فتنة»، ليعترض من لايدركون حكمة الله وتدبيره وتقديره، وليصبر من يثق بالله وحكمته ونصره، ولتمضى الدعوة تغالب وتغلب بوسائل البشر وطرائق البشر، وليثبت من يثبت على هذا الابتلاء» [٢٩].

ومجئ الأمر على هذه الصورة الاستفهامية يحقق الحث على الصبر مع التلطف والرفق، ويوحى بأن الصبر المطلوب حاصل من غير طلب، ويشعر بالحرية الفكرية الممنوحة للإنسان ليختار مايقتنع به من سبل، ولاجدال فى أن سبيل الصبر على الابتلاء هو مسلك العقلاء .

---

(٢٦) الاتقان: ٢/ ٨٠ .

(٢٧) البحر المحيط: ٧/ ٤٩١ .

(٢٨) حاشية الشهاب: ٦/ ٤١٥ .

(٢٩) فى ظلال القرآن: ٥/ ٢٥٥٦- سيد قطب .

خصائص هذه التراكيب:

عرضنا فيما سبق لخمسة تراكيب قرآنية متشابهة الصياغة، هى: (فهل أنتم مسلمون) - (فهل أنتم شاكرون) - (فهل أنتم منتهون) - (هل أنتم مجتمعون) - (هل أنتم مطلعون) وقد بينا دلالة الاستفهام فيها على الأمر، وأوضحنا مايحتوى عليه هذا الأمر من معان دقيقة، وماينطوى عليه من أسرار بلاغية، لاتتأتى فى أسلوب الأمر المباشر .

وسنقف أمام هذه التراكيب القرآنية متأملين مافى صياغتها من سمات وخصائص .

لقد تصدرت الفاء التراكيب الثلاثة الأولى، وخلا التركيبان الرابع والخامس عنها، وهذه الفاء دالة على أن ماقبلها موجب لما بعدها.(٣٠)، وأن مابعدها مترتب على ماقبلها، ومطلوب حصوله بعده على الفور، ودون تراخ أو تأجيل .

فثبوت الوحدانية لله القدير، وجعل الوحى مقصوراً على تقريرها، يقتضى سرعة الانقياد لله رب العالمين، وتواصل إنعام الله على المخاطبين، يقتضى منهم المبادرة بحمده وشكره.، وتفصيل مفاسد الخمر والميسر، وبيان مضارهما يقتضى سرعة الانتهاء عنها .

ولما كانت هذه الأمور الثلاثة مطلوبة على وجه السرعة تصدرتها الفاء، أما قوله تعالى: (هل أنتم مجتمعون) فقد خلا عن الفاء لسر لطيف، هو أن الناس المطلوبين للاجتماع، لم يكونوا مطلوبين على الفور عقيب إظهار موسى معجزتيه، وجداله مع فرعون وملئه، إذ قد حدد الطرفان فى هذا الموقف موعدا للاجتماع والتبارى، وهو ضحى يوم الزينة، وقام جنود فرعون بطلب الناس

---

(٣٠) روح المعانى: ١٠٧/١٧ - الألوسى .

للاجتماع فى هذا الموعد المضروب، وقد جاء ذلك في قوله تعالى: (قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعداً لانخلفه نحن ولاأنت مكاناً سوى قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى) (٣١).

وكذلك قوله تعالى (هل أنتم مطلعون) لم تتصدره الفاء، لأن الأمر بالاطلاع ليس مطلوباً على وجه السرعة وإن كان المخاطبون قد سارعوا إليه، وذلك لأن رؤية المعذبين مفتوحة أمامهم، وتحقق هدفها فى أى وقت تكون، حيث يسر المخاطبون فى أى وقت يشاهدون فيه قرناء السوء وهم يعذبون فى النار .

وقد جاءت هذه التراكيب بأداة الاستفهام «هل» وهذه الأداة لها من الخصائص مايميزها عن سواها من أدوات الاستفهام، من ذلك: أنها مختصة بطلب التصديق، وتخصص المضارع بالاستقبال، ولها مزيد اختصاص بالدخول على الفعل تحقيقاً أو تقديراً. (٣٢)

ولهذا فإذا دخلت «هل» فى تركيب من التراكيب على جملة اسمية، كان ذلك منطوياً على سر بلاغى دقيق، هو: جعل ماسيوجد مستقبلاً كأنه موجود وحاصل فعلاً، وإبرازه فى معرض الثابت المستقر اهتماماً بأمره، ورغبة فى وقوعه وتحققه .

وفى الأمثلة القرآنية التى نحن بصدد الحديث عنها، دخلت «هل» علي جمل اسمية فأفادت هذا السر الدقيق، حيث ظهرت المطلوبات الخمسة: الإسلام، والشكر، والانتهاء، والاجتماع والاطلاع، فى معرض الأمور الثابتة المستقرة، مما يشعر بكمال الاعتناء بحصولها، وتمام الاهتمام بتحققها .

---

(٣١) سورة طه: ٥٧ - ٥٩ .

(٣٢) ينظر مغنى اللبيب: ٢/٤٤. لابن هشام. ، والمطول: ٢٣٠. للتفتازانى .

ولقد تأمل البلاغيون مثالاً من هذه الأمثلة السابقة، وبينوا دقته وتميزه فى الدلالة علي المطلوب، قال السكاكى - بعد أن بين خصائص «هل» التى منها زيادة اختصاصها بالدخول على الأفعال-: ولذلك كان قوله عز وجل: (فهل أنتم شاكرون) أدخل فى الإنباء عن طلب الشكر من قولنا: فهل تشكرون؟ أو فهل أنتم تشكرون؟ أو أفأنتم تشكرون؟ لما أن هل تشكرون وإن كان ينبئ عن عدم التجدد لكنه دون (فهل أنتم شاكرون) لما ثبت أن هل ادعى للفعل من الهمزة، فترك الفعل معها يكون أدخل فى الإنباء عن استدعاء المقام عدم التجدد »[٣٣].

ولزيادة إيضاح ماقاله السكاكى نقول: إن قوله تعالى: (فهل أنتم شاكرون) أدل على طلب الشكر وأقوى من قولنا: فهل تشكرون؟ وقولنا: فهل أنتم تشكرون؟. لأن «هل» في القول الكريم، داخلة على جملة اسمية، وهى تفيد الثبوت والاستمرار، فأبرز الشكر المطلوب فى معرض الأمر الثابت المستقر، اهتماماً بحصوله ووقوعه. أما المثالان المذكوران فقد دخلت «هل» فيهما على الفعل، تحقيقاً في المثال الأول، وتقديراً فى المثال الثانى، لأن «أنتم» فيه فاعل لفعل محذوف يفسره المذكور، والفعل يدل على التجدد والحدوث، وفى هذا إشارة إلى أن الشكر لم يقع، وبذلك خلا المثالان عن النكتة الموجودة فى القول الكريم .

كما أن القول الكريم أدل على طلب الشكر أيضاً من قولنا: أفأنتم شاكرون؟ لأنه وإن أفاد الثبوت من حيث إنه جملة اسمية، إلا أن «هل» لما كانت لها زيادة اختصاص بالفعل أكثر من الهمزة، كان ترك الفعل معها أدل علي كمال العناية بحصول ماسيتجدد [٣٤]، وكان فى ترك الفعل معها عدول

---

(٣٣) مفتاح العلوم: ١٤٨ .

(٣٤) ينظر المطول: ٢٣١ .

عن الأصل، وهو لايحسن إلا لنكتة تفتضيه، والنكتة هنا: الإشارة إلى قوة طلب الشكر بإظهاره فى معرض الثابت الواقع.(٣٥)

وتثير الحواشى البلاغية بعض التساؤلات فى موطن الحديث عن هذه الآية أهمها: أن قولنا: هل أنتم تشكرون؟ يفيد الاستمرار التجددى، ومافى الآية الكريمة يفيد الاستمرار الثبوتى، والاستمرار التجددى أمس بالمقام من الاستمرار الثبوتى، وذلك لدلالته على طلب استمرار الشكر على سبيل التجدد، وهو أشق على النفس، ويستدعى زيادة الثواب، فما وجه العدول عن الاستمرار التجددى إلى الاستمرار الثبوتى فى الآية ؟ وقد أجاب «الفنرى» عن ذلك فقال: إن ماذكر في الآية الكريمة أدل على كمال عناية الله تعالى بعباده، حيث رضى منهم بما هو أهون عليهم من الأعمال.(٣٦)

ودفع «عبد الحكيم» التساؤل من أصله، ورده باعتبار أنه لامحل لإيراده، فقال: والكلام فى الآية لطلب أصل الشكر، لالطلب استمرار الشكر، ومن هنا فلا وجه للتساؤل المذكور.(٣٧)

وإضافة على ذلك أقول: إن قوله تعالى: (فهل أنتم شاكرون) يتضمن سراً دقيقاً - كما تقدم - وهو: إبراز الشكر الذى يطلب حصوله على سبيل التجدد فى معرض الأمر الثابت المستقر رغبة في تحققه، واهتماماً بوقوعه وهو معنى بديع ينفرد به القول الكريم دون سواه .

كما أن الاستمرار الثبوتى لايعنى الانقطاع، فكثيراً مايقصد به الاستمرار والدوام فى الزمان المتجدد، كما فى قولنا: المؤمنون منتهون عن

---

(٣٥) ينظر تقرير الإنبابى، وتجريد البنانى: ٣/ ١٣٠ .

(٣٦) تجريد البنانى: ٣/ ١٣٠ .

(٣٧) حاشية عبد الحكيم على المطول: ٣٢٣ .

المعاصى، فهذا يعنى الانتهاء المستمر الدائم الذى لارجوع فيه، والأمر بالشكر فى الآية مطلوب على الدوام ولايختص بزمان دون زمان .

وماذكره البلاغيون فى حديثهم عن قوله تعالى: (فهل أنتم شاكرون) ينسحب على الأمثلة الثلاثة الأخرى المشابهة له فى النظم .

صور أخرى لهذا الأسلوب :

وفى القرآن الكريم مواضع أخرى كثيرة غير التى قدمناها، أشار العلماء إلى أن الاستفهام فيها يفيد الأمر، من ذلك:

١ - بعض أساليب الاستفهام الإنكارى التوبيخى، كقوله تعالى: (إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر مامن شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون) [٣٨] فقد قالوا: إن قوله تعالى: (أفلا تذكرون) يفيد الأمر بالتذكر، ومعناه: اذكّرو. [٣٩] وهو استفهام وارد عقيب التعريف بقدرة الله عز وجل، مما يوجب على المخاطبين دوام التذكر، ويقتضى توبيخهم على تركه .

وكقوله تعالى: (ومالكم لاتقاتلون فى سبيل الله...) [٤٠] فقد قالوا: إن الاستفهام فيه يفيد الأمر بالجهاد، والحث عليه، والتوبيخ على تركه، والمعنى: قاتلوا فى سبيل الله. [٤١]

---

(٣٨) سورة يونس. آية: ٣.

(٣٩) ينظر البرهان: ٢/٣٣٩.

(٤٠) سورة النساء. آية: ٧٥ .

(٤١) ينظر حاشية الشهاب: ٣/١٥٥، والبرهان: ٢/٣٣٩ .

٢ - أساليب الاستفهام التى تفيد التنبيه، حيث جعلوا التنبيه من أقسام الأمر.[٤٢]، ومنها قوله تعالى: (ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه)[٤٣]، وقوله تعالى: (ألم تر إلى ربك كيف مد الظل)[٤٤]، وقوله تعالى: (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل)[٤٥]. فقد قالوا: إن المعنى فى كل ذلك: انظر بفكرك فى هذه الأمور وتنبه.[٤٦] ففيها حث على النظر، والاعتبار.[٤٧]

وأشار صاحب «البرهان» إلى صور أخرى فيها دلالة على الأمر.[٤٨]، ولامرية فى أن هذه الصور التى ذكرها العلماء فيها دلالة على الطلب، وإشعار بالأمر، وحث على فعل الشئ، بجانب ماتنضوى عليه من أغراض بلاغية أخرى، كالإنكار والتوبيخ والتعجيب، وغير ذلك، والنكات البلاغية لاتتزاحم، والأسرار التعبيرية لاتتعارض، والأساليب القرآنية على اختلاف ألوانها تحوى الكثير من الأسرار البلاغية، واللطائف التعبيرية، ومن ثم يتسع مجال البحث فيها أمام كل متأمل .

---

(٤٢) البرهان: ٢/٣٤٩، والاتقان: ٢/ ٨٠ .

(٤٣) سورة البقرة. آية: ٢٥٨ .

(٤٤) سورة الفرقان. آية: ٤٥ .

(٤٥) سورة الفيل. آية: ١ .

(٤٦) البرهان: ٢/ ٣٤٠، والاتقان: ٢/ ٨٠ .

(٤٧) ينظر حاشية الشهاب: ٢/٣٢٦ .

(٤٨) ينظر البرهان: ٢/٣٣٩ ومابعدها .

ومـــاقـــدمناه فى هذا الموضـــوع يمثل نظرة تأمليـــة فى بعض الأســـاليب القرآنية، حاولنا فيها الكشف عن بعض أسرار النظم القرآنى المعجز، الذى لاتفنى عجائبه، ولاتنقضى غرائبه، والله أسأل الصواب والسداد، إنه نعم المولى ونعم النصير .

دكتور/ **الشحات محمد عبد الرحمن أبوستيت**

أستاذ البلاغة والنقد

ووكيل كلية اللغة العربية بإيتاى البارود